وليد رباح

الخوف

عبر ثقب التنشين .. كنت ارى النمل يلج اخاديد الحصى متجها نحو الجرح .. يعب منه حتى حافة الارتواء .. ارتجف هلعا ـ ثم يختلط الطين والهواء والبلل بكل شذرات الرمل المنسدلة على حبيبات عرقي .. اصرخ واصرخ .. استيقظ والضحك يملأ جو الخيمة الرازح تحت حلقات الدخان .

جاء ـ ابو العلا ـ .. رجل اذا ما وضعت ذهب الارض في كفة ميزان وهو في الاخرى يصعب ان تميز من هو الاثقل .. قال بعد ان حك راسه : رفقا به ..تجربته لم تزل فجة .

انطلق الضحك بعد خفوت .. دفنت راسي ثانية .. حاولت ان اغفو .. اخترق دبيب النمل تجاويف راسي « منذ الغد سأطرد النمل من كل ثقب للتنشين لأرى جنود العدو .. افرغ المخزن بلمسة سبابه»

لامست رائحة « اليومية » شعيرات انفي .. وكزني ابو العلا برفق : ابو حديد « دفىء معدتك بقليل من الشاي » ضحكوا جميعا .

ـ خيوله ان يستبدل اسمه بآخر .

قال اخر بلهجة أهل المدن :

ـ آل ابو حديد ال .. يا اخي سمي حالك ابو أشه ..ابوخشبه

رفعت راسي مبتسما .. قال ابو العلا :

ـ عيب يا شباب !

تناولت كوب الشاي .. لسع اصابعي بقسوة .. تحاملت على نفسي كي لا اثير عاصفة اخرى من الضحك والتعليق .

ـ رشفت قليلا .. هرعت الى امعائي سخونة لذيذة .. احسست بخدر .. قال ابو العلا :

ـ الليلة عرس حامد .. يجلس الآن الى عروسه في المخيم .. قررنا بعد رحيله ان نحتفل هنا .

اختلطت همساته بالنعاس والخدر .. طافت حول مسمعي كلمات رائقة كصفاء الماء .

أوف .. أوف يمين الله ما بانسى حبيبي
ولا بانسى الليالي والهنا
لو ابعدوك عني يا حبيبي
لا جيبك والله من سابع سما

ابتسم ابو العلا : ابن فرحه ؟ قبل الثورة كان يغني في الاعراس عتابا وميجانا .. اما اليوم فتصاحب كلماته بعض الطلقات .

التفوا حلقة في وسطها ابن فرحه .. سرحت كلماته الى الناي والمخيم وطاولة النرد .. وصف البرتقال والزعتر وكل ما قد يخطر ببال ..

فجاة توقف كل شيء .. اشرأبت الاعناق .. لفحت مسامعهم اصوات قريبة ..حوار ثم ضحكات تسيل كخرير الماء في ليلة صيف.

ـ لا شيء هنا .. اهل القرية يصرون على الاحتفال بعرس حامد جاءوا .. على رؤوسهم كوفيات تلمع تحت الضوء الباهت

ـ يا مرحب بالشباب

المختار .. كلما سمعت باسمه هرعت الى الملجأ .. طويل كما النخلة .. عريض كمساحة ارض « القاعدة » . وشارباه .. عنقود عنب تنغلش حباته دون نظام

.. جلسوا ، طاف ابو العلا يحمل علبة السجائر .. اعتذروا .. قال المختار :

ـ ندخن « تتنا » أحمر من نبع الارض .. انهم يغشون اللفائف.

ضحكوا .. فهم المختار واردف :

ـ علمنا حامد ان نسمي الدخان تتنا كما في لهجتكم .. نحن نمتص منه بشغف قبل ان ينقلوه الى « الريجي » حيث يختلط هناك بالدخان الامريكي فيفقد طعمه ورائحته .

صاح أحد الشباب .. شاي يا ابو حديد .. انسربت الى الخيمة ببطء ..لماذا يصرون دائما ان اصنع لهم الشاي ؟ بعضهم يدعي انني اتقن صنعه .. اخرون يقولون انني لا اتقن غير هذه المهنة .

اوقدت بعض الحطب ، ركزت الابريق فوق احجار ثلاثة حدقت الى الماء الذي اخذ يطف كفحيح افعى .. لماذا تبرعت بي ؟. يوم جاءوها تقطر عيونهم قالت « ولا يهمكم يا شباب .. مات الاول فخذوا الثاني » كنت اصغي .. ارتجفت هلعا .. وبدا وجهي كمصاب باليرقان فقالت « ولكن ترفقوا به » ضحكت وتابعت « انه يخاف من خياله ! » .. مضت الان شهور تسعة لم ارها ..

ـ الشاي يا « ابو حديد »

كان الدخان يتصاعد ، تحرر الماء من سجنه وفاض على الحطب، جاء ابو العلا مسرعا .

ـ فيم تفكر ؟ النار انطفأت

ـ لن اعمل الشاي

بهت ابو العلا للحظة .. لكنه قال :

ـ وضيوف الليلة ؟

ـ فلتصنعه انت

ـ حسنا .. وماذا ستفعل ؟

ـ سأغني ..

ـ ماذا ؟!

اندفعت الى الحلقة .. صفقوا .. نظروا الي بدهشة ..تعالت الضحكات .. قال مخيمر ساخرا « صفقوا ! الا تسمعون ؟ » التهبت الأكف . . وقفت كمن به مس ، صرخت « صفقوا اكثر ! » ازدادوا حماسا ، كان المختار يصفق واسنانه الذهبية تعكس شعاع الضوء الباهت

ـ وماذا بعد ؟

ـ صفقوا !

ـ لقد التهبت اكفنا

امسكت البندقية من طرفيها ، رقصت .. علا صراخ الاستحسان مختلطا بالتصفيق .. التقطت اذني كلمات كانما أتت من وادسحيق

ـ كان يخدعنا طيلة الوقت !
ـ انه يشبه الجنكيه التي كانت تؤم الاعراس في قريتنا
ـ انظروا .. ان لـه خصرا نحيلا كعـود قصب !
ـ كان مختبئا في قشوره .

وقفت فتوقفوا .. الاه ـ استطيع الان ان آمرهم فيبدأوا .. ما اجمل اصدار الاوامر ! انهـا متعـة لذيذة .. منذ شهور وهـم يأمرونني فاطيع ، اليوم جاء دوري ..

تسمرت عيونهم نحوي .. سكنوا كانمـا هم في مأتم .. ولكـن انفـراج الشفاه انبـأ انهم ينتظرون اللحظـة التالية :

يا عريس مبارك حمامـك
والكف يرقع قدامـك

أعادوها بحماس غريب .. بدأوا يصفقون بجنون .

واليوم عرسـك واتهنـا
واحنا واللـه زلامـك

ـ الشاي يا ابو العلا .. لقد جف حلقي !

هكذا صرخت . بدا ابو العلا وقد تاه في خضم تأملات لذيذة .. كان ينظـر اليّ عـن بعـد ويصفق وقـد بدا عليه ذهول غريب .

ـ الشاي ..
ـ الشـاي ..
ـ حاضر يا ابو حديد .. تابع

ذهب وانحنى ينفخ النار فامتلأ جـو الحلقة بالدخان .. رقصت حتى شعرت ان ساقيّ انخلعتا .. جلست قرب المختار .. بـدأوا يعلقـون .. لم المح شيئا .. انصرف ذهني الى العملية « لقد خرقت حاجـز الوهم هذه الليلـة .. وغدا سوف اثبت لهم انني ابو حديد» جاء ابو العلا . أصر ان يقدم التـاي لي بعد المختار .. تصنعت الجد ،

ـ عيب يا ابو العلا .. الضيوف اولا

قال بصوت هامس :

ـ سبحان مغير الاحوال !

شربوا .. قال مخيمر .. أعد الكرة يا ابو حديد .. قال ابـو العلا .. دعه لقـد تعب .. عليه ان يغسل الثياب غدا

ـ لاول مرة اشعـر ان ابو العلا يهينني
ـ لن اغسل بعد اليـوم

قال بسخرية

ـ هذا رائع .. ومـاذا ستفعل ؟
ـ كل ما تفعلونه

صفقوا جميعا .. حتى المختار لمعت اسنانه الذهبيـة وقال .. انت اليـوم ابو حديـد

« لا لست ابو حديد .. غدا سانتزع هذا الاسم »

ـ سيغسل كل منا ثيابه
ـ تمرد والله ابو حديـد
ـ دعوه في نشوتـه

قال ابو العلا : في الثالثة صباحا سوف ننهض جميعا ..اقترح ان تنامـوا ..

قام المختار والضيوف ، ابتعدوا وهم يبتسمون .. تهيـأوا للتحـرك الى مراقدهم .

ـ اسمعوا .. اريد ان اتكلم اليكم .

عادوا وهم يعلقـون

ـ سأكون احد عناصر عملية الليلة .

ماذا ..! اتتني القبلات من كل جهة .. دغدغوا خاصرتي بعنف .. ترك ابو العلا بندقيته واخذ يرقص .. صفقوا له طويـلا ..قفز مخيمر في الهواء . قال سحنون (مقاتل قلمـا يتكلم) يا فرحتـك يا أمه .. حزن احـد الشباب

ـ ذهبت ايام الشاي المطر (باليرميه) .

سحبت بطانيتي من الخيمـة .. افترشت الارض والحصى .. بدا انهم استسلموا لنـوم هانيء .. كانت انفاس مخيمر تلفح وجهي وتخرج صريرا كأنه صوت باب صدىء .. ثم علا شخيره .

الليل .. آه من الليل .. اخشى عند بزوغ الفجر ان تستيقظ كل احلامي فاصبح مضغـة الافـواه ثانية .. عندمـا احلم بزحف النمل عبر ثقف التنشين فاصحو واطرده .. يبتعـد عني بسرعـة الضوء المتموج .. أيتسنى لي ان ارى جنديا عبر الثقب ولا ترتجف يدي ؟. سأقطعهـا اذا ارتجفت .. مخيمر هذا الذي تقتلني انفاسه .. لمـاذا يطلق النار وكأنه يرسم لوحـة سيريالية ؟ . ربمـا خاف في اول مرة .. لكنه اليـوم كمـا اسمع يستطيع اصابة الابرة .. ليتني كنت مخيمر وكان مخيمر أنا .. سأتحمل رائحة انفاسه العفنة.. يقولون ان الانسان لا يشم الا رائحـة غيره .. ما يهم ان اصبح مخيمر .. وان لم استطع ان اكونه فلأكن مثله ..

تقلبت فانغرس حجر في خاصرتي .. سرحت نظري عبر النجـوم .. امتلأ الفضاء بالاف الكلمـات مرسومة على ورق ملـون تمجـد العمليـة .. واذا مت سموني بطلا .. ما اتفه ذلك !. سأصعـد الـى النجمـة اللامعـة في اقصى الشرق لانظـر الى مخيمر واسمع شخيره الذي يتثنى كراقصة لعوب .. ما أشـد كرهي للموت !

سمعت خطوات قريبة .. وقفت كل شعرة في رأسي .. الفيت حارس القاعدة يغطي الشباب الذيـن انحسر عنهم الغطاء .. تنفست بارتيـاح غيـر ان الارتياع لم يزل يلف انفاسي .. حدقت الى الحارس جيدا .. ما اروع هؤلاء الشباب ـ تأكله لسعـة البرد ثم يأتي ليغطـي الاخريـن .

نظرت الى ساعتي ..كانت تقارب الثالثة صباحا .. سعلت بتؤدة كي اجلب انتباه الحارس .

ـ ابو حديد .. تعبت الليلة كثيرا
ـ لا باس .. سانهض لاستكمال رحلتي

عندما نهضوا ـ كنت اطعم سلاحي نقط الزيت فيشربه بشراهة.. اتجهوا اليّ .. ربتوا على كتفي .. لمعت في عيني ابو العلا بواكيـر دمعـة وليـدة .. وسرنـا عبر الاشجار المغروسة في لحم الارض .

فلسطين

صـدر حديثـا
عن دار الطليعـة

* **صلة القرآن باليهوديـة والمسيحيـة**
د . فلهلم رودلف
ترجمة عصام الدين حفني ناصف
* **التطـور اللامتكافيء**
د . سمير أميـن
* **الاسلام والرأسمالية (طبعة ثانية)**
مكسيم رودنسون
ترجمة نزيه الحكيم
* **الصهيونية نظريـة وممارسة**
مجموعة مـن الكتاب السوفييت
توجمة يوسف سلمان
* **الماركسية والمسالة الفلاحية**
ج . ستالين
ترجمة جورج طرابيشي